المبحث الثالث:
الوثنية السياسية.. خبرة العلمانية التركية

في تركيا الجديدة استطاع حزب العدالة والتنمية أن ينتزع نصراً كبيراً علي العلمانية المستبدة بإقرار البرلمان التركي لتعديل الدستور بما يعطي للطالبات المحجبات الحق في الدخول إلي الجامعات بالحجاب، وجاء هذا النصر بعد القراءة الأولي للتعديل الدستور الذي وافقت فيه الأغلبية ب401 صوتاً في مقابل 110، وفي القراءة الثانية تحققت الأغلبية ب 403 صوتاً في مقابل 107 وهو ما يعني أن التعديل تمت الموافقة عليه بشكل نهائي، وكان حزب العدالة والتنمية عمل علي إدخال تعديلات في الدستور التركي أهمها علي الإطلاق حق الفتيات المحجبات في الالتحاق بالجامعة، والمعلوم أن الجامعات في تركيا أحد أهم معاقل العلمانية التركية، فهناك مؤسسات في النظام التركي هي عنوان العلمانية مثل الجيش والجامعات والإدارات البيروقراطية المدنية، والمحكمة الدستورية العليا، و في شهر ديسمبر الماضي تم تعيين " يوسف ضيا أوزكان " رئيساً لما يطلق عليه " YAK " بالتركية أي " مجلس الجامعات التركية "، والذي يعين رئيس مجلس الجامعات التركية هو " رئيس الجمهورية "، والرئيس الجديد للجامعة يشجع حرية التعبير في الجامعة بما في ذلك حق الطالبات المتدينات اللواتي يرتدين الحجاب في دخول الجامعة، لأن حرمانهم لأسباب متصلة بسلوكهم الديني هو نوع من التمييز الذي يجب أن تترفع عنه الجامعات التركية التي يجب أن تكون ساحة لإعلان الأفكار وتداولها بما في ذلك حق الباحثين والأساتذة في التعبير، ومن خلال متابعتنا للصحف التركية فإن هناك حوالي " دستة " من عمداء الكليات

العلمانيين هم من انتفضوا ضد التعديل الدستوري الجديد الذي يدعمه " حزب العدالة والتنمية " والحركة القومية التركية "، وهو ما يضمن لهما ثلثي المقاعد التي تتيح لهما تعديل الدستور، وعلي الجانب الآخر من الصورة فإن أكثر من 300 من أساتذة الجامعة وعمدائها أصدروا بياناً أعلنوا فيه إدانتهم لمنع الفتيات المحجبات من الدخول إلي الجامعات، أي أن غالبية أساتذة الجامعات التركية هم مع حق المحجبات في إكمال تعليمهن.

ولكي نتخيل معاً " وحشية الدولة التركية " والتي أسسها " أتاتورك " فإن رئيس الأركان التركي دخل بنفسه علي الخط وأعلن أنه ضد التعديلات الدستورية التي لا تزال مشروعاً والتي تمنح بنات تركيا الحق في استمرار تعليمهن في الجامعة، ومن المعلوم أن حكماً للمحكمة الدستورية العليا وهي أحد قلاع العلمانية التركية هي التي أصدرت حكماً بمنع الفتيات المحجبات من دخول الجامعة، كان ذلك في الثمانينيات ومنذ ذلك الوقت والحجاب هو أحد المعضلات الكبري في تركيا حيث ترفض الطالبات الجامعيات أن يخلعن الحجاب من أجل دخول الجامعة، واضطر معظمهن إما إلى عدم إكمال التعليم الجامعي تمسكاً بالحجاب أو الذهاب إلي بلدان مجاورة لتركيا للتعلم فيها مثل ماليزيا وسوريا ومصر وغيرها من البلدان العربية والإسلامية.

ثم بدأ العلمانيون إعلاناً لمظاهرات في 17 مدينة تركية ضد مشروع التعديلات الدستورية بدعوي أن فتح الباب لدخول المحجبات الجامعة سوف يؤدي إلي المزيد من المطالب الأخري والتي تقود في النهاية إلي تغيير الطابع العلماني للدولة التي أسسها " أتاتورك ".

بالطبع يمكن للمؤيدين للحجاب وهم بالملايين - فثلثي نساء تركيا مع

حق الفتيات الجامعيات في ارتداء الحجاب، وما يقرب من نصف نساء تركيا محجبات - أن يخرجوا في مظاهرات مضادة تأييداً للحجاب وهو ما يعني جر البلاد لنوع من الاستقطاب السياسي الذي يهدد وحدة المجتمع التركي وأمنه، ومن ثم فالمشهد الذي نراه هو نوع فقط من إثبات الوجود العلماني وليس تعبيراً عن عافية حقيقية، إنها مرارة الروح العلمانية التي تشعر أن الرياح والعصر والقبلة والزمان ليس في صالحها، وأن زمان تركيا استدار كهيئته يوم أن كانت مسلمة في ظل الخلافة العثمانية.

العلمانية والوثنية السياسية:

العلمانية التركية كما أرسي تقاليدها " أتاتورك " هي علمانية فاشية ضد الإنسان والتاريخ والثقافة والحضارة والطبيعة ذاتها، وهذه العلمانية تهاوت تحت مطارق التحولات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها البلاد والتي قادت في النهاية إلي هزيمتها أمام " الحزب الديموقراطي " الذي قاده " عدنان مندريس " بعد إعلان التعددية الحزبية في تركيا عام 1946 م، ثم جاء " طورجوت أوزال " في الثمانينيات ليعلن أن الجمهورية الأولي التي بناها " أتاتورك " قد جاوزها الزمن وكان هو أول رئيس وزراء ثم رئيس جمهورية يجهر بأداء الصلاة ثم يذهب لبيت الله الحرام ليحج، وهو من فتح الباب واسعاً أمام طبقة رجال الأعمال المسلمين في تركيا ليكونوا جزءا من المجتمع وليزاحموا لتأكيد الوجود الاقتصادي الإسلامي في تركيا، كان " أوزال " هو من تجرأ علي نقد " أتاتورك " وهو أول من تجرأ علي " إقالة رئيس للأركان "، وكان يعتبر نفسه المؤسس الحقيقي لما أطلق عليه " الجمهورية الثانية ".

العلمانيون حين ضاقت بهم السبل في أزمة الحجاب اتجهوا فورا إلي ضريح " أتاتورك " في أنقرة وهم يشكون له ما يحدث - هكذا تحدثت بعض التقارير، ومن هنا فالوثنية والشرك ليس فقط دعاء الأولياء والصالحين كما يفعل العوام - وإنما هي أيضاً الاعتقاد السياسي أن " أتاتورك " هو الملاذ والغوث حين المدلهمات والذهاب لقبره لطلب العون السياسي والاجتماعي منه.

فالعلمانية هي أيديولوجية تفقد الإنسان قدرته علي التفكير الصحيح لأنها تفرض عليه أيديولوجية تتوحش لتصبح ديناً يطلقون عليه في العلوم الاجتماعية " الدين السياسي " وهذا الدين السياسي يحاول أن يحتل مكان الدين الإلهي فيفشل، ومن هنا نلحظ محنة العلمانية التي هي بالضرورة أيديولجية شمولية فاشية يتم فرضها استناداً للسلطة والقوة كما حدث مع النازية والشيوعية، ولدينا أيضاً مصطلح " الفرعونية السياسية " حيث الفرعون يعتقد أنه يتحول من الصفة الإنسانية البشرية إلي صفة جديدة يتلاشي فيها الناسوت واللاهوت، وهذا معني يمكن أن نطلق عليه " الحلول السياسي " حيث يتجاوز الفرعون المستبد قدره ويزعم أنه إله كما في قوله تعالي: { ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿ} [القصص: ٣٨] وفي قوله تعالي أيضاً{ ﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿ} [غافر: ٢٩]، ومن هنا فالعلمانية بالضرورة هي ذات طبيعة حلولية تنعدم فيها الحدود والمسافات والصفات والحدود، ومن هنا فهي تقود بالضرورة إلي نظام يختزل الإنسان وحريته في التفكير والاختيار، وتنتج في التحليل الأخير نظاماً يفرض سطوته وجبروته واستبداده علي الإنسان حتي لو اتخذ طابعاً تعدديا ديموقراطياً، فالعلمانية لا تقود فقط للوثنية السياسية وإنما أيضاً للتأله السياسي.

أما التوحيد حيث توجد الحدود وتعرف الصفات والمسافات وتحدد فإن الألوهية تكون لله والإنسان هو عبد لله والكون والطبيعة هما مجال الفعل الإنساني، وهناك دائماً " الوحي " - القرآن والسنة الصحيحة - الذي يحدد للإنسان مصادر الإيمان، ومن ثم لا يمكن أن تتلاشي المسافات بين الله والإنسان ولا يمكن في الحالة التوحيدية أن يخرج إنسان ليقول " أنا الله، أو ما في الجبة إلا الله " كما يقول الحلوليون في الصوفية والذين كانوا بالضرورة علمانيين بمعني أن المسافات والحدود بين الله والإنسان انهارت لديهم، ونظروا لأنفسهم بمنظار استكبار وغرور حتي لو كان في صيغة وجد وذوبان وعرفان صوفي كما يزعمون، كما لا يمكن أن يظهر في النسق الإسلامي ديكتاتور فرعون يقول:{ ﭽﭽﭽ} [النازعات: ٢٤] أو يقول:{ ﭽﭽﭽ ﭽﭽﭽ} [القصص: ٣٨]، فهو هنا بالضرورة علماني أيضاً بمعني انهيار الحدود والمسافات وسقوط ثنائية الله - الإنسان، وثنائية الإنسان - الطبيعة.

الوثنية السياسية هي تضخيم مكانة إنسان ميت في إدراك إنسان حي تجعله يعتقد أن بإمكانه أن يضر وينفع وأنه يلجؤ إليه في وقت الأزمات والمشكلات، وهكذا تلجأ الأيديولوجيات السياسية والشمولية لتجعل من هذا الميت الذي لا يضر ولا ينفع وثنا، لقد كان مشهد العلمانيين في تركيا وهم يلجأون إلي قبر " أتاتورك " تعبيراً عن العودة إلي حالة البدائية الوثنية وما قبل الحضارة التي يفتقد الإنسان فيها الرشد ويتحرر من نزعات الغواية والضعف أمام الشيطان والأيديولجيات والصيغ الوثنية التي تجعل من الإنسان عبداً لغير الله، والإسلام هو الحضارة فهو الذي أعطي للإنسان حريته وكرامته وبلغ معه رشده وسواءه، والتوحيد هو تحرير الإنسان من العبودية إلا لربه عبر المسئولية والفاعلية " إنا عرضنا الأمانة علي السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها

وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ‘‘

مستقبل العلمانية التركية:

العلمانيـة التركيـة إلـي زوال ومسـتقبلها إلـي أفـول، ذلـك لأنهـا كمـا العلمانية الغربية لا مستقبل لها، لقد كـان التصـور الغربـي يقول إن المزيد مـن العلمنـة سـوف يـؤدي للمزيـد مـن التحـديث والتقـدم والديموقراطيـة والإنسانية والعقلانية كما أنه سيؤدي إلـي تراجـع الـدين، ولكـن المزيـد من العلمنة لم يؤد لذلك، فالعلمانية هي التي قادت للحـروب التـي راح ضـحيتها الملايـــين ‘‘ الحـرب العالميـة الأولـي والثانيـة ‘‘ وحـروب ‘‘ بـوش ‘‘ الأخيـرة وإن اتخذت غطاءً دينيا لكنها في روحها ذات طـابع علمـاني يقول إنـه يريد أن يصبغ العالم كله بصبغة أمريكيـة وغربيـة، والعقلانيـة هـي التـي قـادت إلـي الاستعمار وما قيل وقتها عن ‘‘ عبء الرجل الأبيض ‘‘ وهـي التـي قـادت لاحتلال العراق والحرب الدائرة هناك وهي التي قادت لاحتلال أفغانستان والحـرب الـدائرة هنـاك، فهـي تـري الإنسـان مـادة اسـتعمالية يمكـن فقـط توظيفها من أجل المقاصد العلمانية والتي هي في الحقيقة مصـالح للأقويـاء في مواجهة المستضعفين وفق المنطق الدارويني الغربي.

ودعنا نسمع شهادة لأحد أبرز علماء الاجتماع الديني فـي الغرب وهو ‘‘ رودنـي ستارك ‘‘ يقـول ‘‘ لا بـد مـن إعـلان نهايـة إيمـان علـم الاجتمـاع بنظريـة العلمنـة والإقـرار بأنهـا لـم تكـن سـوي محصـلة لأفكـار وتوجهـات محببة، فبعد ثلاثة قرون من إخفاق نبوءاته حري بمبدأ العلمنة أن يلقي فـي مقبـرة النظريـات الفاشـلة ‘‘، تصـور كثيـرون فـي العـالم الإسـلامي أن التحديث يشترط استبعاد الدين والتمسك بالعلمنـة بينمـا أثبتـت التطـورات خطأ هذه الرؤية فمن الممكن أن يكون الإنسان والنظم السياسية حديثة وفي

نفس الوقت تستند لأسس أخلاقية ودينية، والآن وبعد ما يزيد عن ثمانين عاماً من ا لعلمانية في تركيا فإن نهضة البلاد والتحولات التي تعيشها يقع في القلب منها الإسلاميون وهم ينتقلون من الهامش إلي القلب ويمثلون قاعدة تتسع كل يوم حتي أصبحت تعبر عن التيار الرئيسي في المجتمع التركي، ومن ثم فإن عجلة التاريخ تدور باتجاه استعادة الإسلاميين للفضاء الذي سلبه منهم بالقوة وغشم السلطة " الدولة الأتاتوركية ".

وهذه هي المعركة الدائرة اليوم بين قوي تتراجع وهي القوي العلمانية وقوي تصعد في هدوء وهي القوي الإسلامية والحجاب هو أحد عناوين المعركة التي نشهد بداياتها، يشعر العلمانيون بالخوف والعصبية لأن العلمانية ليست مجرد أيديولوجية ولكنها تعبير عن مصالح وامتيازات، ومن ثم فالذين يخرجون للمظاهرات اليوم يخرجون من أجل مصالحهم وامتيازاتهم التي منحتها العلمانية لهم، والإسلاميون يقولون نحن الآن في البرلمان ومن الواجب تعديل الدستور من أجل إعادة الحق للفتيات الجامعيات في استكمال تعليمهن، يقول المشروع المقترح أن الفتاة يجب أن تضع فوق رأسها فقط " إيشارب " صغير يربط من تحت عنقها، لكن لا يمكنها ارتداء حجاب كامل كما لا يمكنها تغطية وجهها، وهو ما جعل بعض الإسلاميين في تركيا يتحدثون عن ضرورة أن تكون الحكومة أكثر جرأة في المطالبة بحق هؤلاء الفتيات بحجاب كامل في الجامعات وخارجها في الإدارات المدنية والبيروقراطية.

ولم تنجح مظاهرات العلمانيين ولا تهديدات العسكر في التأثير علي البرلمان التركي الذي أقر للطالبات المحجبات الحق في دخول الجامعة بإضافة تعديلين للدستور ينص الأول علي معاملة مؤسسات الدولة للمواطنين الأتراك علي قدم المساواة والثاني علي المساواة في الحصول

علي حق التعليم وهو ما يعني من الناحية العملية إلغاء حظر الحجاب في الجامعات التركية، والحق في الحصول علي التعليم الجامعي، ومن المقرر أن يستكمل التعديل وضعه الدستوري بموافقة رئيس الجمهورية " عبد الله غول "، ومن ثم تغيير القانون الذي ينظم عمل الجامعات ليقبل بحق الطالبات المسلمات المحجبات بدخول الجامعة، المشهد التركي العام أن العلمانية تتراجع وينكشف الوجه الاستبدادي لدعاتها بينما يتسع القبول العام للتوجه الإسلامي الذي يتقدم وينتقل من الهامش إلي الصدارة، ومسألة الحجاب في الواقع هي واحدة فقط من مظاهر التحول الاجتماعي والسياسي في تركيا والذي يؤكد أن مصير العلمانية إلي زوال بينما مستقبل تركيا هو في العودة إلي دينها وتراثها وحضارتها وثقافتها وتاريخها، إنها العودة التي تتبدي في الأفق إلي الإسلام لكي تعود الحقوق إلي أصحابها ويسترد المسلمون الأرض التي اغتصبها منها العلمانيون.

* * *